رواية "الغرق" للسوداني حمور زيادة.. دائرة القهر التي لا تُبقي ولا تذر

عن الاختيار والقهر ومصير الإنسان في مجتمع تحكمه العادات والتقاليد يتحدث السوداني حمور زيادة في أحدث أعماله (الغرق.. حكايات القهر والونس) الصادرة عن دار العين للنشر في القاهرة.

تأتي الرواية في 266 صفحة من القطع المتوسط، وهي الثالثة لمؤلفها المتوج بجائزة نجيب محفوظ للأدب من الجامعة الأمريكية بالقاهرة في 2014 عن (شوق الدرويش) إضافة إلى مجموعتين قصصيتين.

تدور الأحداث داخل قرية حجر نارتي السودانية الواقعة على نهر النيل حيث يتخذ المؤلف من مايو أيار 1969 منطلقا لسرده الذي يسير بالتوازي بين حكايات البشر وحكايات الوطن.

تبدأ الحكايات بالغرق، حيث يعثر أهل حجر نارتي على جثة طافية على سطح النيل لفتاة مجهولة الهوية فيرسلون كعادتهم للقرى المجاورة حتى تأتي الوفود للتعرف على الجثة لكن دون جدوى.

ومع التوغل داخل بيوت ودروب حجر نارتي تكثر الشخصيات والأسماء لكن تظل المرأة هي محور الأحداث، فهذه فايت ندو صاحبة العريش القريب من المرسى النيلي الذي تقدم فيه الشاي والقهوة لكل قادم للقرية أو راحل عنها.

فايت ندو امرأة في منتصف الأربعينات ولدت لأم من الإماء في عهد مضى لكنها وقعت في المحظور ذاته حين أنجبت ابنتها عبير خارج إطار الزواج.

تتطلع فايت ندو لمستقبل أفضل لابنتها وتريد أن تلحقها بالمدرسة حتى تصبح ذات يوم طبيبة، لكن القهر المجتمعي والصراع الطبقي يلقي بالطفلة عبير إلى ذات المصير فتصبح أما وهي في الثالثة عشرة من عمرها دون زواج.

اللافت للانتباه أن القهر هنا لم يكن منبعه المجتمع الذكوري الذي تحكمه القبلية فحسب بل تعلمت النساء كذلك ممارسة القهر ضد بعضهن البعض فمن حرمت عبير من التعليم هي زوجة العمدة.

وفي أحد الحوارات تقول فايت ندو لابنتها عبير "نحن وحيدتان. ليس لنا أهل ولا مال ولا احترام. كل اللائي يعانقني يضمرن لي احتقارا".

وتتابع قائلة "نحن المتناسلون من اللامكان في قرية تتفاخر بالأنساب. لا يحترمنا أحد إلا بمقدار ما يحتاجون إلينا وما نُظهر لهم من أدب وطاعة. أنت لست بنت البدري ولا من بيت النابر، ولا أبوك صاحب أطيان. أنت بنت فايت ندو".

وإذا كان قهر النساء يتمثل في الضرب أو الإهانة والاستغلال الجنسي فإن قهر الرجال لا يقل وطأة وألما. فهذا محمد سعيد ابن العمدة الذي يجبره أهله على العودة إلى حجر نارتي لأخذ مكان والده الراحل ويترك الدراسة في الجامعة، فيتغير مصيره وتتبدد أحلامه في أن يصبح "أفندي".

تنازل محمد سعيد ورضوخه لرغبة الآخرين يغرقه في قهر أكبر حين يصبح مجبرا على مباركة الحركة العسكرية التي قادها جعفر النميري لتولي السلطة في السودان وإلا فقد منصبه وأنهى نفوذ عائلته.

كل هذا القهر لم يمنع الرجل من ممارسه ذات الطقس على شقيقه الأصغر الرشيد الذي يجد نفسه بين يوم وليلة مضطرا للزواج من نور الشام أرملة شقيقه بشير والتي تكبره بعدة أعوام وذلك للحفاظ على الميراث وتربية ابن أخيه اليتيم.

كل هذه النماذج التي يقدمها المؤلف وغيرها تخرج من بين سطور الرواية لتطرح تساؤلات قد تبدو بلا إجابة شافية عن إرادة الإنسان والصراع المستمر بين ما يتمناه وما يُفرض عليه وحقه في تقرير مصيره.

ولا تخلو الرواية من صور بديعة رسمها المؤلف بكلماته عن النيل والريف في السودان إضافة إلى الكثير من الأشعار والأغاني التي وظفها في مناسبات الحزن والفرح لسكان حجر نارتي.

ومثلما بدأت الرواية بغرق فتاة مجهولة تنتهي بغرق فتاة أخرى لكن هذه المرة يعرفها القارئ الذي عايش معاناتها.